دراسة تحليلية موازنة في قصيدتي الخريمي وابن الرومي

م . م حميد يعكوب نعيمة

جامعة ذي قار ـ كلية الآداب

الخريـمي :

أبويعقـوب اسـحاق بـن حسـان بـن قـوهي الصـغدي أصـلا ، الخريمـي ولاء، تـوفي (٢١٤هـ) ، نزل بغداد وسكنها أيام الرشيد .(١) ولمّا دخلت سنة سبع وتسعين ومائة ، حدث ان تعرضت بغداد للاجتياح مـن الجنـد ، وانتهـى الامـر بمقتـل الأمـين، واسـتيلاء المأمون على الخلافة ، فخلف ذلك مشاهد متنوعة من الخـراب، والتـدمير طـال جميـع معـالم بغـداد مدينـة الحضارة والمدنيـة ، فـأثَر ذلـك فـي وجـدان شـاعرنا الخريمـي ، فكـان متألمـاً متحسـراً ، فقـال قصـيدة طويلـة تقـع فـي خمسة وثلاثين ومائة بيتٍ وصف بها ما آلت إليه بغداد ، تحت وطأة الفتنة العـارمة سنـــة (١٩٧هـ)٠ (٢)

وعلى الرغم من طول القصيدة لم تفقد توازنـها بين المبدأ والمنتهى ، وقد كانت عوامل الألم في النفس الانسانية مبثوثة في كل مكـان ، لا تكلّـف المـرء البحث عنها ، ممـا يزيـد القـارئ شـدّاً الـى القصيدة وتـأثراً بهـا وانسياقاً معها .(٣)

النـــص :(٤)

١. قالوا : ولم يلعبِ الزمانُ ببغـــ ـــدادَ وتَعثـرْ بها عواثـــرُها
٢. إذ هي مثل العروس باطنـــــها مشـوّقٌ للفتـى وظاهـــــرُها
٣. جنّـــة خلـدٍ ودار مغبطـــــةٍ قـــلّ في النائبات واتـــــرُها
٤. دَرّت خُلـوف الدنيـا لساكنـــها وقـــلّ معسورها وعاســرُها
٥. وانفرجت بالنعيـمِ وانتجعـــت فيـها بلذاتـها حواضِـــرُها
٦. فالقومُ منـها في روضةٍ أُنُـــفٍ أَشرق غِب القطار زاهـرُها
٧. مَن غـرّهُ ألعيشُ فـي بُلهنِيـــةٍ لـــو أَنّ دنيا يدومُ عامـــرُها
٨. دارُ ملـوكٍ رَسَت قواعـــــدها فيـــها ، وقـرّت بها منابـرُها
٩. أَهـل العلا والنـدى وأندِيةُ الـــ ـــفخرِ إذا عُـدّدَت مَفاخـرُها
١٠. أَفـراحُ نُعمى في إرث مملكـــةٍ شَـدّ عُراها لها أكابـــرُها
١١. فَلـم يـزل والزّمان ذُو غِيـــرٍ يَقدحُ في ملكِـها أَصاغـرُها
١٢. حتـــى تَساقت كأساً مُثـمّلـــــةً مـن فِتنـةٍ لايقـال عاثِـــرُها
١٣. وافترقت بعدَ أُلفةٍ شِيَـــــــعاً مقطوعةً بينـــها أواصِـرُها
١٤. ياهـل رأيتَ الأَملاكَ ماصنعت إذ لم يَرُعْهابالنّصح زاجـرُها
١٥. أَوردَ أَملاكُنـــــا نفوسَهُـــمُ هُـوّةَ غَـيّ أعيـتْ مصادرُها
١٦. ماضـرّها لو وفت بمَوثِقـــــها واستحكمت في التُّقى بصائرها
١٧. ولـم تسافك دماءَ شيعتـــــها وتبتعِـث فِتيـةً تكابـــــرُها
١٨. وأَقنعتـها الدنيـا التي جُمعَـــت لـها وَرُعبُ النفوسِ ضائـرُهاش
١٩. مازال حوض الأملاك يحفـرهُ مسجُورها بالهوى وساجـرُها
٢٠. تبغِـي فضول الدنيا مكاثـــرةً حتى أُبيحت كُرهاً ذخائـرُها
٢١. تَبيـــعُ ماجمَّـع الأُبـــوّةُ للـــ ـأبناءِ لاأربَحت متاجِـــرُها

٢٢. ياهل رأيت الجنانَ زاهِـــرةً يـرُوقُ عينَ البصيرِ زاهرُها
٢٣. وهـل رايتَ القصورَ شارعـــةً تُكـنُّ مثل الدّمـى مقاصـرُها
٢٤. وهل رأيت القُرى التي غَرسَ الـ ـأملاكُ مخضـرَّةً دساكـــرُها
٢٥. محفوفةً بالكرومِ والنخل والـر ْ رَيحـان مايستغـلُّ طائـرُها
٢٦. فـإنّها أصبحت خلايـا من الـ إنسانِ قد أُدميتْ محاجـــرها
٢٧. قفـراً خلاءَ تعـوي الكلابُ بها يُنكـرُ منها الرسومَ زائـرها
٢٨. وأصبـحَ البؤسُ مايفارقُـــها إلفاً لـها والسّـرورُهاجـرُها
٢٩. بزَنـدَورْدٍ والياسِريـّـةِ والشّطـ ـين حيثُ انتهت معابـرُها
٣٠. وبـ(الرّحى)و(الياسريّةِ)و(الشّطْ طـَين) حيث انتهت معابـرُها
٣١. و(قصرِ عبدويْـه)عبرةٌ وهـدىً لكـلّ نفسٍ زَكـتْ سَرائـرُها
٣٢. فأيـن حُـرّاسُـــها وحارسُـــها وأيـن مجبـورُها وجابـــرُها
٣٣. وأين خِصيانـها وحِشوتُـــها وأيـن سكّانُـــها وعامـــرُها
٣٤. أين الجرادِيّـةُ الصقالبُ والـــ ـأحبُشُ تعدو هُدلاً مشافـــرُها
٣٥. ينصدِعُ الجنـدُ عن مواكبـــها تعْدو بها سُرّباً ضوامـــرُها
٣٦. بالسّنـد والهنـد والصقالب والـ ـنُّوبـةِ شِيبـت بـها برابـرُها
٣٧. طيـراً أبابيل أرسلـت عبثـــاً يـقدُمُ سُودانَـها اَحامـــــرُها
٣٨. أين الظّباءُالأبكارفي روضه الـ ـملكِ تَهادَى بـــها غرائـــرُها
٣٩. أَيـن غَضاراتُـها وَلَـذّتـــــها وأيـن مَحبُـورها وَحابـــرُها
٤٠. بـالمسك والعنبـرِ اليمانيِّ والـ ـيلنجُـوجِ مَشبُوبَـةٌ مَجامِـرُها
٤١. يَـرفُلن في الخـزّوالمجاسِدِ والـ ـمَوشيّ محطومَـةً مَـزامـرُها
٤٢. فَـأين رقاصـها وَزامِـــرُها يُجبـنَ حيـثُ انتهت حناجرُها
٤٣. تكـــادُ أسماعُهـم تُســـكُّ إذا عارضَ عِيـدانَـها مَزاهـــرُها
٤٤. أمسَت كَجوفِ الحِمـار خاليَـةً يَسعَـرُها بالجحيـم ساعـــرُها
٤٥. كـأنّما أصبحـت بساحتهـــم (عـادٌ)ومسّـتهمُ صراصـرُها
٤٦. لاتعلـمُ النفسُ مايُبابِئُـــــها مـن حَادِث الدّهـر أو يُباكرُها
٤٧. تُضحـي وتُمسـي دَريَّـةً غَرَضاً حيـث استقرّت بها شراشرُهـا
٤٨. لأسْهُـمِ الدّهـر وهـو يَرشُقُـها مُحنِـطُها مَـرّةً وَباقِـــرُها
٤٩. يَـا بُؤسَ بغدادَ دار مملكَـــةٍ دارتْ علـى أهلـــها دوائرُها
٥٠. أمهلـها أللهُ ثُـمّ عاقبـــــها لـمّا أحاطـت بها كبائـــرُها
٥١. بالخسف والقذف والحريق وبالـ ـحرب التي أصبحت تساورُها
٥٢. كم قد رأينا من المعاصي ببغدا د ، فهل ذو الجلال غافـــرُها
٥٣. حـلّت ببغـداد وهيَ آمنـــــةٌ داهيـــةٌ لـم تكـن تـــحاذرُها
٥٤. طالعَـــها الســوءُ من مطالِعِهِ وأدركـت أهلـــها جرائـرُها
٥٥. رَقّ بهاالدينُ واستُخفّ بذي الـ ـفضل،وَعَـزّ النُسّـاكَ فاجرُها
٥٦. وخطّـمَ العبدُ انف سيّـــــدِهِ بـالرّغُم ،واستُعبِدَت حرائرُها
٥٧. وصـار ربّ الجيران فاسقَهم وابتـزّ أمرَ الدّروبَ ذاعـرُها
٥٨. مَـن يَـرَ بغـدادَ والجنودُ بـها قـد ربّقَـت حولَـها عَساكرُها
٥٩. كلُّ طَحونٍ شهبـاءَ بَاسِلـــةٍ تسـقط أحبالـها زماجـــرُها
٦٠. تُلقـي بغـيْ الردى أوانِسَـــها يُرهقُـــها للقـاءِ طاهِـــــرُها
٦١. والشيـخ يعدو حزمـاً كتائبه يُقـدِمُ اعجـازَها يـعاورهـــا
٦٢. و(لزُهيـر)(بـالفِرك) مأسَـدةٌ مـرقومـهُ صلبـةٌ مكاسِـــرُها
٦٣. كتـائـبُ الموتِ تحـت ألويـةٍ أبـرَحَ منصـورُها وَناصـرُها
٦٤. يعلـــمُ أن الأقـدار واقعـــةٌ وقعـا على ما أحَب قادرُهـــا

٦٥. فتلـــكَ بغدادُ مايُبـنّى مـن الـذ ـلةِ في دُورهـــا عصافِرُهـــا
٦٦. محـفوفـة بالـردى مُنَطقَـةً بِالصُغر مَحْصُورَة جبابرُهـــا
٦٧. مابين شطّ (الفراتِ) منه إلى (دِجْلـةَ) حيـث انتهت معابِـرها
٦٨. نار كهـادِي الشّـقْراءِ نافِـرُه تَرْكُـض من حـولِها أشَاقِرُها
٦٩. يُخــرِقـهـــا ذا وذاكَ يهدمـها ويشتـفِي بالنهـابِ شاطـرُهـــا
٧٠. والكَـرخُ أسواقُـها مُعطّلــةٌ يَستنّ عِـيّارُهـا وعـائرُهـــا
٧١. أخرجت الحربُ من سواِقطها آسـادَ غِيلٍ غُلباً تُسَاورُهـا
٧٢. من البواري تِرَاسُها ومـن الــ ـخُوصِ إذا استلأَمَت مَغافرُها
٧٣. تَغدُوإلى الحرب في جَواشنِهاالــ ـصّوف إذا ما عُدّت أساورُها
٧٤. كَتَـائب (الـهِرْشِ) تحت رايَـتِـهِ ساعَـدَ طَـرّارَهـا مُـقامِرُهـا
٧٥. لا الرزقَ تبغي ولا العطـاءَ ولا يَحشُرُها للّقاء حاشِرُهـــا
٧٦. فـي كـلّ دَرْب وكلّ نـاحيـــةٍ خطّارَةُ يَستَهلٌ خـاطِرُهـــا
٧٧. بمثلِ هامِ الرجال من فلَق الصّـ ـخر يَزُودُ المِقلاعَ بَائرُهـا
٧٨. كـأنمـا فـوقَ هامِـهـا فِـــرَقٌ من القطـا الكُدْرِهاج نـافِرها
٧٩. والقومُ من تحتها لـهم زَجَــلٌ وهـي تـرامي بـهـا خَـواطِـرُهـا
٨٠. بلْ هل رأيتَ السيوفَ مُصلَتـةً أشهَرَها في الأسواقِ شاهِرُها
٨١. والخيلَ تستَنّ في أزقّتِـهـــا (بالتُركِ) مسنونةً خَناجِـرُها
٨٢. وَالنّقطَ والنّارَ في طَرائِـقِـهـــا وهابيـاً للدخـانِ عامِـرُهـا
٨٣. والنّهبُ تَعدو به الرّجالُ وقـدْ أبد َتْ خلاخيلـها حَرائِـرُها
٨٤. مُعصَوصباتٍ وسطَ الأزِقّةِ قـدْ أبرَزَهـا للعيون ساتـرهـا
٨٥. كـلّ رَقودِ الضّحَى مخَبّـأةٍ لم تَبدُ في أهلـها محاجرُها
٨٦. بَيْضَةُ خِدرٍ مكنونـةٌ بَـرَزَتْ للناس منشورةً غَدائـرُهـــا
٨٧. تَعثرُ في ثوبـها وَتُعْجلُهـــا كَبّةُ خَيلٍ رِيعَتْ حَوافـرُهـا
٨٨. تسألُ: أين الطريقُ وَالهـــةً والنّارُ من خَلْفها تُبَادرُهـا
٨٩. لم تَجتَل الشّمْسُ حُسنَ بَهجَتِهـا حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
٩٠. ياهَلْ رأيتَ الثّكلى مُوَلوَلـةً في الطّرْق تسعى والجَهدُ بَاهرُها
٩١. في إثر نَعشٍ عليهِ واحدَهـا في صَدْرِهِ طعنـةٌ يُساورُهـا
٩٢. فَرغاءُ ينقى الشنـار مربَدُهـا يَهزّها بالسنان شاجـرُهـــا
٩٣. تنظرُ في وجهه وتهتف بالثــ ـكلِ وجَارِي الدموع حادِرُها
٩٤. غَرغَر بالنّفس ثم أسلمهـــا مَطلولَةً لايُخاف ثائـرُهـــا
٩٥. وقد رأيت الفتيان في عَرصَةِ الـ ـمَعرَك مَعفُورَة مَناخـرُهـــا
٩٦. كلُّ فتىً مـانـع حقيقتـــــــه تشقـى به فـي الوغى مساعرها
٩٧. باتت عليـه الكـلاب تنهَشُـــه مخضوبـــةً مـــن دمٍ أظافـرها
٩٨. أما رأيـت الخيـول جائـــلةً بالقـوم منكوبـةً دوائـــــرها
٩٩. تعثُــربالأوجـه الحسان من الـ قتـلى وغلّـت دمـاً اشاعـرُها
١٠٠. يـطأن أكبـاد فتيـة نُجُـــــدِ يـفلِـق هاماتهـم حوافـــرُها
١٠١. أما رأيـت النســاء تحت المجا نيـقِ تعادى شعثاً ضفائـــرُها
١٠٢. عقائـل القوم والعجائـز والــ ـعنّس لم تُحْتَبرْ معاصرها
١٠٣. يحملن قوتاً من الطّحين على الـ أكتـاف معصوبـة معاجرهـا
١٠٤. وذات عيش ضنك ومقعسـة تشدهـا صخرة تعاورهـــا
١٠٥. تسأل عن أهلـها وقد سُلِبتْ وأبتُزّ عن رأسها غفائرهـــا
١٠٦. ياليت شعري والدهر ذو دول يرجى وأخرى تخشى بوادرها
١٠٧. هل ترجعن أرضُنا كما غَنِيَتْ وقد تناهت بنا مصائرهـــا

١٠٨. من بلـغٌ (ذاالـرّيـاستـين) رسا لاتٍ تـأتّـى لـلـنـصح شـاعـرهـا
١٠٩. بأنّ خير الولاة ، قد علم النـّ ـاس ، إذا عُـدّدت مـآثـــرهـــا
١١٠. خـلـيـفـةُ الله في بـريّـتـه (الـ مأمون) منـتـاشـهـا وجابـرهـا
١١١. سـمـت إلـيـه آمـال أمّـمـتـــه منـقادة بَـرّهـــا وفاجـرهـــا
١١٢. شاموا حياً العدل من مخايلـه وأصحرت بالتّـقى بصائـرهـا
١١٣. وأحمدوا منك سيرةً جلت الـــ شـكّ وأخرى صحّت معاذرها
١١٤. واستجمعت طاعةً برفقك (للمأ مون) نـجـد يّـهـا وغـائـرهـــا
١١٥. وأنت سمعٌ في العالمين لـــــه ومقـلـةٌ ما يـكِـلّ نـاظـرهـــا
١١٦. فاشكرلذي العرش فضل نعمته أوجب فضل المـزيـد شاكـرهـا
١١٧. واحذر فداء لك الرعية والـــ أجـنـادُ مأمورهـا وآمـرهـــا
١١٨. لا تـــردنْ غـمْـرةً بـنـفسك لا يصدرُ عنها بالرأي صادرهـــا
١١٩. عليك ضحضاحها،فلاتلج الغمـ ـرة متلجّـةً زواخـرُهـــا
١٢٠. والقصد أن الطـريق ذو شعب أشأُمها وعثـهـا وجائـرهـــا
١٢١. أصبحت في أمّـة أوائـلـهـــا قد فارقت هـديها أواخرهـــا
١٢٢. وأنت سرسورها وسائسهـــا فهل على الحقّ أنت قاسرهـــا
١٢٣. أدّب رجـالاً رأيت سيـــرتـهم خالف حكَم الكتابِ سائرهـــا
١٢٤. وامدد إلـى الناس كفّ مرحمةٍ تُسـد منهـم بهـا مـفاقـرهـــا
١٢٥. أمكنـك العدلُ إذ هممـتَ بـه ووافقـتْ مـدّه مقـادرهـــا
١٢٦. وأبصر النـّاسُ قصد وجههـم وملـّكـت أمّة أخيـارهـا
١٢٧. تُشـرِع أعناقـها إليك إذا الـ سـادات يـوماً جمّـت عشائرُهـا
١٢٨. كم عندنا من نصيحةٍ لك في الـ ـلّه وقُـربى عزّت زوافـرهـا
١٢٩. وحـرمـةٍ قـرّبت أواصـــرها منـك ، وأخرى هل أنت ذاكرها
١٣٠. سعـيُ رجالٍ فـي العلمِ مطلبُهُم رائـحُـها باكـرٌ وباكـــرهـا
١٣١. دونـك غـرّاءَ كالوذيـلةِ لا تُفقَـدُ فـي بلـدةٍ سوائـرُهـا
١٣٢. لاطمعـاً قُلتـها ولا بَطَـــراً لكـلّ نفسٍ هـوًى يُؤامـرُهـا
١٣٣. سيّـرها اللّه بالنصيحـةِ والـ ـخشيـةِ فاستُدمجَت مرائـرُهـا
١٣٤. جاءَتـكَ تحكـي لك الأمور كما يَنـشُرُ بزّ التّـجـارِ ناشـرُهـا
١٣٥. حمّلـتُها صاحبـاً أخـا ثقـةٍ يـظلّ عُجبـاً بـها يحاضـرُهـا

الدراســة :

فـي قصـيدة الخريمـي البالغـة الطـول ، وجـدنا أنفسنا أمام انسان قد هزّته الفجائع التي يراها كل يوم ، وقد تصّور ان هذا الذي حلّ بالقوم إنّمـا هو غضب من الله عليهم لانحرافهم وعصيانهم وانغماسهم في الشـهوات . يبـدأ الخريمـي بـذكر محاسـن مدينـة بغداد وأهميتهـا عبـر التـاريخ الـذي يسـبق احـداث الفتنـة ونلمس ذلك واضحاً من خلال كثرة ورود أفعال المضي فـي الـنص:(قـالوا ، قـلّ، درّتْ، انفرجـت، انتجعـت، أشرق ، رست، قرّت، عُدّت ، ساقت ، افترقت):

قالوا ولم يلعب الزمـــــان بـ(بغداد) وتعُثر بها عواثـــــرها
جنّة خلد ودار مغبطـــــةٍ قل في النائبات واتـــرها
درّت خلوف الدنيا لساكنـها وقلّ معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعتْ فيها بلذّاتها حواضـــرها
فالقوم منها في روضةٍ أنف أشرق غِبّ القطارزاهرها

واذا التفتنا الى رصانة بناء هذا المقطع ، نجده بناءً رصيناً يشدّ بعضه بعضاً من خلال التضمين الذي هو : (حالة خاصة من التعارض بين الوزن والتركيب) (٥) ، فتعلق معنى البيت بالبيت الذي يليه منح النص تماسكاً بنائياً كما في هذين البيتين :

فلم يزل والزمان ذوغيرٍ يقدح في ملكها أصاغرها
حتى تساقت كأساً مثمّلةً من فتنةٍ لايقال عاثرها

ففي الوقت الذي سجل فيه البيت الاول وقفته العروضية عند كلمة (أصاغرها) نجد أنه خرق الوقفة الدلالية التي لم تكتمل الا مع البيت الثاني وهذا يبدو واضحاً مع كلمة (حتّى) التي تربطها علاقة تركيبية ودلالية مع جملة (فلم يزل) في البيت الاول لوقوع الاولى (والزمان ذوغير..)إسماً لفعل النسخ(يزل) والثانية خبراً له ، ومن دون مراعاة هذه العلاقة لم يكتمل الفهم لأنه حين يتسائل المتلقي قائلا : وما شأنهم والزمان ذوغيرٍ ، يأتيه الجواب: حتى تساقت كأساً ... البيت .
وفضلاً عن ذلك نجد ه استعمل أسلوب العطف بـ (الواو) الذي من وظائفه الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم والإعراب :

درّت خلوف الدنيا لساكنها وقلّ معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت فيها بلذّاتها حواضرها

وفي موضع آخر :

حتى تساقت كأساً مثمّلةٍ من فتنةٍ لايُقالُ عاثرها
وافترقت بعد إلفةٍ شيعاً مقطوعةً بينها أواصرها

وكاد ان يخلو هذا المقطع من الفنون البلاغية لولا تشبيهٌ واحد ورد في هذا البيت :

إذ هي مثل العروس باطنها مشوق للفتى وظاهرها
جنّة خلدٍ ودار مغبطةٍ قلّ من النائبات واترها

ويستمر هذا المقطع في الوصف المتتابع والمترابط ، ناسباً العز الذي ترفل به بغداد الى ما بناه الأكابر (آباء واجداد الامين والمأمون) الى ان امتلك ناصية الامر (أصاغرها) ، وقد امتد هذا الاستطراد في الوصف من البيت الاول حتى البيت الحادي عشر ، عندها يصل الخريمي الى الغاية بلفظة (حتى) في البيت الثاني عشر ، ليبدأ مؤشر التمزق والخراب والفرقة في بسط نفوذه الدلالي على مساحة القصيدة : حتى تساقت كأساً ...البيت .
وافترقت ... البيت .
ثم يمضي الشاعر ، وقد غلب عليه الأسى ، مما أصاب بغداد ، متسائلاً تساؤل الحزين مُستذكراً صفوف الجنود والحراس والعبيد ومعرّجاً على مواكب الترف ، يعرضها في تفصيل مثير لكي ينتهي مرّة ثانية الى وصف المحنة التي حلت بها :

ياهل رأيت الجنان زاهرة يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة تكنّ مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غرس أل أملاك مخضرّة دساكرها
محفوفة بالكروم والنخل والترِ حانٍ، مايستقلّ طائرها
فإنّها أصبحت خلايا من الـ إنسان قد أدميت محاجرها
قفراً خلاءً تعوي الكلاب بها ينكر منها الرسوم زائرها
وأصبح البؤس مايفارقها إلفاً لها والسرور هاجرها

ولا أعتقد أنّ الشاعر يريد جواباً ، ولعله أراد أن يسترجع ممّا اختزنته الذاكرة من مشاهد حضارية متنوعة كانت تنعم بها بغداد كجناتها الزاهرة وقصورها الشارعة ، ويجمع اليه نقيضه المتمثل بحاضر المدينة الذي يعمّه الدمار والخراب .

ونلمس من خلال استرساله بالقصيدة أنّه يعزو هذا الخراب الذي حلّ ببغداد إلى أنّه عقاب من الله ، لما اقترفه أهل هذه المدينة من المعاصي والآثام :

أمهلها الله ثمّ عاقبـــــــــها لمّا أحاطت بها كبائـــــرها
بالخسف والقذف والحرق وبالـ حرب التي أصبحت تساورها
رقّ بها الدين واستخفّ بذي الـ فضل ، وعزّ ألنسّاك فاجرها
وخطّم ألعبد أنف سيّـــــــده بالرغم واستعبدت حرائرها

وقد قرن هذا الخراب بما حلّ بـ (عاد) الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم :

كأنّـــما أصبحت بساحتـــــهم (عادٌ) ومسّتهم صراصـــرها

ثمّ ضمّنها شيئاً ممّآ كان سائداّ من علوم عصره ، كالإيمان بالتنجيم وعلاقته بحسن وسوء الطالع :

طالعها السوء مـــن مطالعـــه وأدركـــت أهلها جرائـــــــرها

كما نلحظ من عروض هذه القصيدة وضربها ،أنهما جاءا مطويّين (مفتعلن) ، أما حشوها ، فقد تناوب في الدخول على تفعيلة (مستفعلن) زحافا (الطي) و (الخبن) ، وأمّا النواة (مفعولاتُ) ، التي تتوسّط إيقاع هذا البحر ، فقد ميّزت إيقاعها هيئتان ، الأولى: هي الصيغة السالمـــة (مفعولاتُ) (٦)، والثانية هي الصيغة المطوية (مفعلاتُ) ، وقد هيمنت المطوية (مفتعلن ــ مفعلاتُ) على مساحة واسعة من حشو الأبيات توزعت فيها بين الصدور والأعجاز. ولأنّ الزحاف تغير يلحق ثواني الأسباب بالتسكين او بالحذف ، فإنّه يعمل على اختصار الزمن ، ولهذا فهو يتفق وحالة الانفعال التي تتطلب السرعة في الأداء والرغبة بتوصيل المعنى والتنفيس عن الحالة. (٧)

وإذا تناولنا الأبيات التي أوردها في مدح المأمون ،وجدناها تبدأ من البيت (١١٠) وتنتهي بالبيت (١٣٠)، أضفى فيها على ممدوحه كلّ مزايا الخليفة المطاع الذي لايردّ له أمرٌ متنقّلاً بين أسلوب الخبر والإنشاء المتمثل بأفعال الطلب المتحقّق بصيغة الأمر، وهو أمرٌ غير حقيقي لجأ فيه الشاعرإلى المجاز :

أدّب رجـــالاً رأيت سيرتـــهم خالف حكـم الكتاب سائـــرها
وامدد إلى الناس كفّ مرحمة تسد منهم بها مفاقـــــــرها

وأمّا الأبيات من (١٣١ـ١٣٥) ، نجد الشاعر يجنح إلى أسلوب التبرير الذي يجعل غايته من نظم هذه القصيدة ليست غاية دنيّة ، وإنّما هي ماأملته عليه مشاعره تجاه بغداد ، فنظم هذه الغرّاء ، وسطّر فيها الموعظة والنصح والإرشاد، مايرجو فيه تحقيق الفائدة والمنفعة :

دونك غرّاءٌ كالوذيـــــلة لا تفقد فـي بلدة سوائـــــرها
لاطمعاً قلتها ولا بطـــــراً لكلّ نفسٍ هوىً يؤامـــــرها
سيّرها الله بالنصيحة والـــ خشية فاستدمجت سرائـــرها
جاءتك تحكي لك الإمور كما ينشر بزّ التّجار ناشـــــرها
حمّلتها صاحباً أخـــا ثقـــةٍ يظلّ عُجباً بـــها يحاضـرها

وفي ختام ما نقوله عن القصيدة : إنها عبارة عن نفثات شاعر مكلوم ، تحرّقت وتألّمت عاطفته من المشاهد التي روّعت خياله ووسمت نفسه الشعري بالحزن الهادىء، ففاضت عواطفه بهذه القصيدة الغرّاء .

يضاف إلى ذلك نتيجة لما تخلّل القصيدة من وصف لمشاهد الخراب والدمار والفرقة ، وملاحقة دقيق الامور إلى عظيمها ، أنّها تعد بمثابة وثيقة تاريخية تعبّرعن نتائج الصراع بين الأمين والمأمون على الخلافة .

ولما تخلّل أبياتها من نصح وإرشاد قدّمها الشاعر إلى الخليفة وإلى اهل بغداد، وبعاطفة متحرّقة متألمة على ماحلّ بهذه المدينة ، مالت هذه القصيدة إلى التقريرية والمباشرة ، فتمركزت دلالتها في بنيتها السطحية ، باستثناء بعض اللمسات الفنيّة التي بيّنّاها في مواضعها .

إبن الرومـــي :

أبو الحسن علي بن العباس بن جريح ، ولد في بغداد سنة (٢٢١هـ) ، وتوفي سنة (٢٨٣هـ) أو(٢٨٤هـ) . (٨) التحق بكتاتيب عصره ، وبحلقات التدريس من المساجد ، فحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، ومن مختارات الشعر والخطب، كما استفاد من مناظرات العلماء من النحويين والفقهاء . تفتحتْ قريحته الشعرية ، وهو حدث ، وتروى له أبيات مبكرة ، قالها في الهجاء .(٩)

تفوق ابن الرومي في الرثاء ، فأجادَهُ في صوره ، ومعانيه ، واقترب به إلى الوجدان والصدق ، وتناول الموضوع بطريقة تختلف عمّا كانت عليه ، فتميزت مرثياته بقوة الحرارة وصدق العاطفة ، لأنّه أبعد ما يكون عن اصطناعها ، وقد مُنيَ بنكبات كثيرة ، وأهمّها وفيّات متكررة حصدت أولاده الثلاثة بعد زوجته ، وأخيه ، فبكاهم جميعاً ، وأشفق على نفسه لفقدهم . (١٠)

النص : (١١)

١. ذاد عن مُقلتي لَذيذ المنـــام شُغلها عنه بالدموع السجام
٢. أيّ نومٍ من بعد ماحلّ بالبصـ ـرةِ من تلكم الهنات العظام
٣. أيّ نومٍ من بعد ماانتهك الزّنْـ ـجُ جهاراً محارم الإسلام
٤. إن هذا من الإمور لأمرٌ كاد أن لايقومَ في الأوهام
٥. لرأينا مُستيقضين امـــوراً حسبُنا أن تكون رؤيا منام
٦. أقدم الخائنُ اللعينُ عليها وعلى الله أيّما إقدام
٧. وتسمّى بغير حقٍ إمامـــاً لاهدى الله سعيهُ من إمام
٨. لهف نفسي عليكِ أيتها البصـ ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام
٩. لهف نفسي عليكِ يامعدن الخيـ ـرات لهفاً يعضّني إبهامي
١٠. لهفَ نفسي ياقبّة الإسـ ـلام لهفاً يطولُ منه غرامي
١١. لهف نفسي عليك يافرضة البلـ ـدان لهفاً يبقي على الأعوام
١٢. لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزّك المستضام
١٣. بينما أهلُها بأحسنِ حالٍ إذ رماهُم عبيدُهم باصطلام
١٤. دخلوها كأنّهم قِطَعُ اللي ـلِ إذا راحَ مُدلهِمّ الظلام
١٥. طلعُوا بالمُهنّداتِ جِهراً فألقت حملها الحاملاتُ قبل التّمام
١٦. وحقيقٌ بأن يُراع أناسٌ غومضوا من عدوّهم باقتحام
١٧. أيّ هولٍ رأوا بهم أيّ هولٍ حُقّ منه تشيبُ رأسُ الغلام
١٨. إذ رموهُم بنارهم من يمينٍ وشمالٍ وخلفِهمْ وأمام
١٩. كم أغصّوا من شاربٍ بشراب كم أغصّوا من طاعمٍ بطعام
٢٠. كم ضنينٍ بنفسهِ رامَ منجى فتلقّوا جبينهُ بالحسام
٢١. كم أخٍ قد رأى اخاهُ صريعاً تربَ الخدّ بين صرعى كرام
٢٢. كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيه وهْو يُعلى بصارم صمصام؟
٢٣. كم مفدّى في أهله أسلموه حين لم يحمه هنالك حامي؟
٢٤. كم رضيعٍ هناك قَد فطموهُ بشبا ألسيفِ قبل حين الفطام
٢٥. كم فتاةٍ بخاتم الله بكرٍ فضحوها جَهراً بغير اكتتام
٢٦. كم فتاةٍ مصونةٍ قد سبوها بارزاً وجهها بغيرِ لثام
٢٧. صبّحوهمْ فكابدَ القومُ منهم طولَ يومٍ كأنّهُ الفُ عام
٢٨. ألفُ الف في ساعةٍ قتلوهم ثم ساقوا السّباءَ كالاغنام
٢٩. من رآهُنّ في المساقِ سبايا دامياتِ الوجوهِ للاقدام
٣٠. من رآهنّ في المقاسم وسْط الزْ زِنج يقَسّمنَ بينهم بالسهام
٣١. من رآهُنّ يتّخذنَ إماء بعد ملك الإماء والخُدّام
٣٢. ماتذكرت ماأتى الزنج إلاّ أضرم القلب أيّما إضرام
٣٣. ماتذكّرتُ ماأتى الزنج إلاّ أوجعتني مرارةُ ألإرغام

٣٤.رُبّ بيـــعٍ هناك قـد أرخصـوهُ طـال ماقد غـــلا على السّوام
٣٥.رُبّ بيـتٍ هنـاك قـد أخرجـوهُ كـــان مأوى الضّعـاف والأيتام
٣٦.رُبّ قصـرٍ هناك قـــد دخلـــوه كان من قبلُ ذاك صَعب المرام
٣٧.رُبّ ذي نعمـةٍ هنـاك ومـــالٍ تـــركوهُ محـالفَ الإعـــدام
٣٨.رُبّ قـومٍ باتـوا بأجمعِ شمـــلٍ تركـوا شملَهُـمْ بغيـرنظـام
٣٩.عرّجا صاحبيّ بالبصرةِ الزّهـ ـراء تعريـج مُدنـف ذي سقام
٤٠.فاسْـألاها ولا جـوابَ لديـــها لسؤالٍ ومـــن لـها بالكـــلام
٤١.أيـن ضوضاءُ ذلك الخلق فيها أيـن أسواقُـها ذواتُ الرّخـــام
٤٢.أيـن فلـكٌ فيـها وفُلـكٌ إليـــها مُنشـــآتٌ فـي البحر كالأعلام
٤٣.أيـن تلك القصـور والدور فيها أيـن ذاكَ البُنيـانُ ذو الإحكام
٤٤.بُدّلت تلكُمُ القصـــورُ تـــلالاً مـــن رمـــادٍ ومـن تُرابٍ رُكام
٤٥.سُلّط البـثـقُ والحريـقُ عليـهم فتـداعَت أركانُـــها بـــانهـدام
٤٦.وخـلـت مـن حلولها فهْيَ قَـفرٌ لاتـرى العيـن بين تلك الأكام
٤٧.غيـرَ أيـــدٍ وأرجُلٍ بانـنـــاتٍ نُـــبذَتْ بينهُـنّ أفـلاقُ هـام
٤٨.ووجـوهٍ قـد رمّلتْـــها دمـــاءٌ بـأبـي تلكـمُ الوجوه الدوامـي
٤٩.وُطِئـتْ بالهـوانِ والذّلِ قسـراً بعـد طـولِ التبجيل والإعظام
٥٠.فتـراها تسفـي الريـاحُ عليهـا جاريـاتٍ بهبـوةٍ وقتـــــام
٥١.خاشعـاتٍ كأنّـهـا باكيـــات بـاديـات الثّغـور لا لابتسام
٥٢.بـل الـمّـا بساحةِ المسجدِ الجا مـع إن كُنتمـا ذوي إلمـــام
٥٣.فـاسألاهُ ولا جـوابَ لـديـــهِ أيـنَ عُبّـادهُ الطوالُ القيـام؟
٥٤.أيـنَ عُمّـاره الأُلـى عمّـروهُ دهْرهُم فـي تـلاوةٍ وصيام
٥٥.أيـن فتيانـهُ الحسانُ وجـوهـا أيـن أشياخُـهُ أولـو الاحلام
٥٦.أيّ خطـبٍ وأيّ رُزْءٍ جليـلٍ نـالـنـا في أولئـك الأعمـام
٥٧.كم خذلنا من ناسكٍ ذي اجتهـادٍ وفقيـهٍ في دينـهِ عـــلاّم
٥٨.واندامـي على التّخـلفِ عنهـم وقليـلٍ عنـهم غنـاء ندامى
٥٩.واحيـائي منهـمُ إذا ما التقينـا وهـمْ عند حاكـمِ الحكـّامِ
٦٠.أيّ عُـذرٍ لنـا وأيّ جـوابٍ حينَ نُدعى على رؤوس الانام
٦١.ياعبـادي : أمـا غضبتـم لوجهي ذي الجـلال العظيم والاكـرام
٦٢.أخذلتـمُ إخوانـكم وقعدتـمُ عنـهُم ـ ويحكُم ـ قُعـود اللئام
٦٣.كيـف لم تعطفـوا علـى أخواتٍ فـي حبال العبيـدِ من آل حام
٦٤.لـم تغاروا لغيـرتي فتركتـمُ حُـرُمـاتي لمـن أحلّ حرامـي
٦٥.إنّ من لم يـَغـَرْ على حـُرُماتـي غيـرُ كُفءٍ لقاصـراتِ الخيام
٦٦.كيف ترضى الحوراء بالمرءبعلاً وهـو من دون حرمـة لايحامي
٦٧.واحيـائي مـن النبيّ إذا مـــا لامنـــي فيهم أشـدّ المـــلام
٦٨.وانقطاعـــي إذا هُمُ خاصموني وتـولـّى النبيّ عنهم خصامـي
٦٩.مثـلوا قولـهُ لكـم أيّها النـّا سُ إذا لامكـمْ مـــع اللـوّام
٧٠.أُمّتـي أيـن كُنتـم إذ دعتنـــي حُـرّةٌ من كرائـــم الأقـوام
٧١.صرخت: ((يامُحـمّداهُ)) فَهـلاّ قـامَ فيـها رعـاةُ حقّي مقامي
٧٢.لـم أجبها إذ كُنـتُ ميتـاً فلولا كـــان حيّ أجابها عن عظامي
٧٣.بأبـي تـُلكمُ العظـامُ عظـــاماً وسَقتـها السماءُ صوبَ الغمام
٧٤.وعليـها من المليـك صـــلاةٌ وســـلامٌ مؤكـّـدٌ بســـلام
٧٥.إنـفـروا أيّـها الكرامُ خفافـاً وثـقالاً إلـى العبيـد الطـُغـام
٧٦.أبـرَمُوا أمرهـم وأنتـم نِيـامٌ سـوءَةً سوءَةً لنـوم النّيـــام
٧٧.صدّقـوا ظنّ إخـوةٍ أمّلوكُـم ورجَـوكُم لنبـوةِ الأيـّـــام
٧٨.أدركـوا أمرهُم فذاك لديهُـم مثـل ردّ الارواح فـي الاجسام
٧٩.لـم تـقـرّوا العيـونَ منهـُم بنصرٍ فـاقـرّوا العيون منهـم بانتقـام
٨٠.أنقـذوا سبيهـُم وقـلّ لـهـُم ذا كَ حفـاظاً ورعيـةً للـذّمـام
٨١.عـارُهُم لازمٌ لكـُم أيّها النـّا سُ لأنّ الأديـانَ كالارحـــام
٨٢.إن قعدتـُم عـن اللعينِ فأنتـم شـركاءُ اللعيـن فـي الآثـام
٨٣.بـادروهُ قبـل الرويّـةِ بالعـز م وقبـل الإسـراج بـالإلجـام

٨٤.من غداسرجُه على ظهرطرف فحـرامٌ عليـهِ شـدّ الحـزام
٨٥.لاتطيلـوا المقام عن جنّة الخلـ ـدِ فأنتـُم فـي غيـر دار مُقـام
٨٦.فاشتروا الباقيات بالعرض الاد نـى وبيعوا انقطاعـهِ بـالـدّوام

الدراسـة :

استهلّ ابن الرومي قصيدته بمقدمة تفصح عن عاطفة حزينة باكية متألمة ، طردت من مقلتيه النوم ، فمشاهد التخريب والتدمير ، وهتك الحرمات التي حلّت بهذه المدينة ، أفزعت نفسية ابن الرومي ، وجعلته يبكيها بدموع سجام :

ذاد عن مقلتـي لذيذ المنـام شغلـها عنـه بالدمـوع السجـام
أيُّ نومٍ من بعد ماحلّ بالبصـ ـرة من تلكم الهنات العظـام
أيُّ نومٍ من بعد ماانتهك الزنـ ـج جهاراً محارم الإسـلام
إنّ هذا مـن الإمـور لأمـرٌ كاد أن لايقوم فـي الأوهـام
لرأينـا مستيقضيـن أمـوراً حسبنـا أن تكون رؤيـا منـام

فوقف ابن الرومي متسائلاً عمّا حلّ بهذه المدينة من الكـوارث والفنـاء وهـو عـارف بتعـذر الإجابـة واستحالتها ، إذ كيف يجيب من دبّ الموت في كلّ حنو من أحنـاء جسمه وكيانه :

أيُّ نوم ٠٠٠ البيت (٢) ٠
أيُّ نوم ٠٠٠ البيت (٣) ٠

فما حلّ بالبصرة من الفضائع المنكرة ، أمر لا يمكن أن يصدّقه أو يقبله عقل ، بل يكاد أن لا يكون حتى في عداد الأوهام والظنون :

إنّ هذا من الإمور ٠٠٠ البيت (٤) ٠

ثـمّ انتقـل لذكرمحاسـن ومناقـب مدينـة البصـرة التأريخية ، متحسّراً ومتألّماً وقد نلمس ذلك واضحاً من خلال تكراره لعبارة (لهف نفسي) ، والتكرار يعد ((أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلّطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها)) (١٢) ، كما في الأبيات :

لهف نفسي عليك أيتها البصـ ـرة لهفاً كمثل لهب الضّـرامِ
لهف نفسي عليك يامعدن الخيـ ـراتِ لهفاً يعضّني إبهـامي
لهف نفسي عليك يافرّضة البلـ ـدانِ لهفاً يبقي على الاعـوامِ
لهف نفسي لجمعك المتفـاني لهف نفسي لِعزّك المستضـامِ

بعدها يصور لنا مشهد دخول العبيد :

دخلوها كأنهم قطع الليـ ـل اذا راحَ مُدلهم الظـلامِ
طلعوا بالمهندات جهراً فألقت حملها الحاملات قبل التمـامِ

وقد اجاد ابن الرومي في تصوير هذا المشهد إجادةً عالية ، من خلال تشبيه العبيد بـ (قطع الليل) المدلهم ، فحين يخيم الليل وينشر عباءتة السوداء الثقيلة ، فكل شيء يجنح الى الصمت والسكون ، وكأنّ أهل المدينة غارقون في سباتهم العميق ، وكذلك أجاد حين استعار لفظـة (المهندات) للنساء وكذلك في تشبيه البصرة بالحامل التي تجهض قبل التمام .

وبعد أن فرغ من ذلك انتقل الى التفصيل الدقيق الذي لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً الاّ سجلها ، كعدسة مصّور بارع ، ينتقل من مشهد الى مشهد ليصور ويلتقط كل مشهد مثير ومرعب من مشاهد الفزع والهلع الذي حلّ في نفوس أهل البصرة :

كم أغصّوا من شاربٍ بشـراب كم أغصّوا من طاعم بطعـام
كم ضنيـن بنفسه رام منجـىً فتلقـوا جبينـه بالحسام
كم أخ قد رأى اخاه صريـعاً تـرب ألخـدّ بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيـه وهـو يعلـى بصارمٍ صمصام
كم مفدّى في أهلـه أسلمـوه حين لم يحمه هـناكَ حامـي
كم رضيع هناك قد فطمـوه بشبا السيف قـبل حين الفطـام

كم فتـاة بخاتـم الله بكـــــــرٍ فضحوها جهـراً بغيراكتتـام
كم فتـاة مصونة قد سبـــــوها بارزاً وجهها بغيـــر لثـــام

ولعل مردّ هذا التفصيل ، وملاحقة دقائق المشاهد ، يرجع إلى الطبيعة النفسيّة لابن الرومي ، ذات الخيال الواسع والقريحة الخصبة ، وقدرته الفذّة على توليد المعاني ٠ ومن المشاهد الأخرى التي اجاد ابن الرومي في التقاطها ، بانفعال واضح مع الحدث ، مشهد (السبايا والقتلى)، السبايا التي يتقاسمها الزنج بالسهام :

من رآهنّ في المســـاق سبايا داميات الوجـــــوه للأقدام
من رآهنّ في المقاسم وسط الزْ زِ نج يُقسّمن بينهم بالسهـــام

وكيف فاجأ الزنج أناس هذه المدينة المطمئنّة الآمنة في الصباح :

صبّحوهم فكابد القوم منهـــــم طول يوم كأنّه الف عـــــام
ألفُ ألفٍ في ساعة قتلوهـــــم ثـمّ ساقوا السباء كالأغنـــام

ومما يستنتج من خلال قوله :
ما تذكرت ما أتى الزنج ٠٠٠ البيت (٢٩) ٠
ما تذكرت ما أتى الزنج ٠٠٠البيت (٣٠)٠
وكذلك قوله : رُبّ بيعٍ ٠٠٠البيت (٣١) ٠
رُبّ بيتٍ هناك ٠٠٠البيت (٣٢)٠
رُبّ قصرٍ هناك ٠٠٠البيت (٣٣)٠
رُبّ ذي نعمةٍ هناك ٠٠٠ البيت (٣٤)٠
رُبّ قومٍ باتوا ٠٠٠ البيت (٣٥)٠

إنه لم يكن قد عايش أحداث البصرة أثناء تمرّد الزنج الذي آل الى دمارها ، وما يعيننا على ذلك قوله (ماتذكّرت ذلك) التي تتضمّن معنى كلّما تذكرت ، وكذلك قوله (رُبّ) التي يتسرّب الى الذهن منها معنى الاحتمال دون القطع ٠ ممّا يقودنا هذا الاستنتاج الى أن ما جاء من وصف دقيق لهذه الأحداث عند الشاعر ما هو إلاّ تعبير عن مشاهدات متأخرة بعد هدوء العاصفة واستقرارها ، أطلق فيها الشاعر العنان لخياله الخصب في تصوير وتجسيد الأحداث وملاحقة الامور بتفاصيلها ٠

ثم يسترسل في تسائله عن جلبة قاطنيها التي كانت اصداؤها تتجاوب مع كلّ فناءٍ من أفنيتها وعن أسواقها التي كانت مكتظّة بروّادها والسفين التي كانت تمخر المياه فيها ، إنّ كلّ شيء قد فنى واندثر ، فاستحالت القصور العامرة تلولاً من الرماد واكداساً من التراب وحلّت الوحشة فيها محلّ الأنس لخلوها من أنيسها وساكنيها :

فاسألاها ولا جواب لديـــــها لسؤالٍ ومـن لـها بالكـــلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيـــها أين أسواقها ذوات الزحـــام
أين فلك فيها وفلك إليـــــها مُنشـآت في البحر كالاعلام
أين تلك القصور والدور فيـــها أين ذاك البنيـــان ذو الاحكام
بدّلت تلكم القصـــورتـــــلالاً من رمادٍ ومن ترابٍ ركـــام
سُلّط البثق والحريق عليهـــم فتداعت أركانـــها بانهـدام

وهل يمكن لمدينة مدمّرة أن تلعق جراحها البليغة الحاضرة ؟ ، كي تقلّب صفحات امسها باحثة عن ذكرياتها وماضيها الآفل٠ إنّ البنية النصّية لهذه الأبيات تتكشّف عن أن الشاعر راح يتساءل باستغراب شديد عن التناقض بين الأمس واليوم ، موظّفاً تكرار الأداة (أين) ،الذي بسط دلالة مشاهد الماضي والحاضر على مساحة واسعة من فضاء الأبيات ، مستعيناً بالتضمين القرآني ((ولهُ الجوارِ المُنشآتُ في البحرِ كالأعلامِ)) (١٣) ، لتعزيز الدلالة وتقويتها٠

وبعد أن فرغ من هذا الوصف المأساوي الذي انتاب هذه المدينة العربية العريقة ، أخذ يحثّ الناس على القصاص من أولئك الطغام والنيل منهم ، والتنكيل بهم لما اجترموه من آثام وما اقترفوه من موبقات ، داعيا الى إعداد كلّ ما يستطاع من قوة لمنازلتهم وإدراك الثأر منهم، إن لم يكن بالوسع اجتثاثهم والانتصار عليهم ، وإنّ هناك من ينتظرهذا الفعال ، ويرقب الإقدام الباسل ،لترتاح النفوس المضطربة وتطمئنّ القلوب المجهدة٠

إنفروا أيّها الكرامُ خفافـــــاً وثقالاً إلـى العبيد الطغـــامِ
أبرَموا أمرهم وأنتم نيـــــامٌ سوءةً سوءة لنـوم النيـــام
صدّقواظـنّ إخـوةٍ امّلوكـــم ورجوكـم لنبوة الأيـــام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهـــم مثل ردّ الأرواح في الأجسام
لم تقرّوا ألعيون منـهم بنصـرٍ فأقـرّوا عيونـهم بانتقـــام
أنقذوا سبيهم وقـــلّ لـــهم ذّا ك حفاظاً ورعيةً للذمـــام

وقد انتظمت ميمية إبن الرومي على وزن الخفيف ، الذي أكثر القدماء من استخدامه في أغراض قريبة من مواطن الأداء النفسي ، كالتأمل والحكمة والرثاء ، كما أستعمل لإبراز الحوار الداخلي مابين الشاعر وأعماقه . (١٤)

لهف نفسي ... لهفاً... البيت (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) .
حملها الحاملات ..... البيت (١٥) .
شارب بشراب ..... البيت (١٩) .
طاعم بطعام ..... البيت (١٩) .
عـرّجا تعريج ..... البيت (٣٩) .

كما دوّم صيغا تتماثل في بناءاتها ، منها:

أرخصوه ..... البيت (٣٤) .
أخرجوه ..... البيت (٣٥) .
جاريات ..... البيت (٥٠) .
خاشعات ..... البيت (٥١) .

لتتوالد من خلالها إيقاعات داخلية ترفد القافية وتعزّز دورها الترجيعي .

وفي ختام حديثنا عن هذه القصيدة ، يمكن القول : استطاع ابن الرومي أن يسجل أحداث الاجتياح ، بكل دقّةٍ وتفصيل بعين رائية وقلب مكلوم، قد راعه الحدث الجلل ، وهزّ وجدانه ، معتمداً أسلوب المداخلة بين زمانين ومكانين، زمان ومكان مثّلا الماضي الزاهر بعمران هذه المدينة وازدهارأسواقها وتجارتها ، وزمان ومكان يمثّلان الحاضر بكلّ ما لحق به من دمارٍ وتخريب وتشويه لمظاهرالحضارة فيها ، وقد سيطرت على القصيدة بأكملها عاطفة واحدة ، وهي البكاء على ماحلّ بهذه المدينة المنكوبة .

وقد التقى إبن الرومي في بكائه على البصرة ، مع مقدّمات القصائد التي تلتزم التقليد الفني في بنائها ، والتي تبدأ بـ (بكاء الاطلال) لأنّ كلا الحالين قد أصابه التغيّر والبلى واندراس المعالم سواء أكان مصدر هذا التغير الطبيعة أم الإنسان على الرغم من اختلاف الموضعين .

ولهذا جاءت مرثيته من القصائد ذات الغرض الواحد التي تمتّعت بوحدة موضوعيّة ، تحققت في تنسيق عباراتها ، وائتلاف المعاني والصور، واتصال الأخيلة والعواطف ، حتى اصبحت عملاً فنّياً متميزاً، لا نجد فيه ثغرات تفقده الصلة بين أجزائه.

والملاحظ على القصيدة أنها غنية بموسيقاها الداخلية ، تتوزع فيها الألفاظ واشتقاقاتها بشكل أخاذ ، بما يمنح ((الأسلوب حركة مضافة وسخونة شعرية متجددة)) (١٥)، كما في هذه الألفاظ :

موازنــة:

إذا وازنّا بين القصيدتين، نجد أنّ هناك اوجه تشابه واختلاف بين القصيدتين ، قد يكون مردّ ذلك إلى طبيعة نفسي الشاعرين أو إلى قدراتهما في التعبيرعن الأحداث.

أوجه التشابه :

١. اتسمت القصيدتان بعاطفة حزينة متحسّرة على ما أصاب المدينتين ، وقد استمرّ تأثير هذه العاطفة حتى نهاية القصيدتين.
٢. براعة الشاعرين في التعبير والتصوير وفي استحضار ماضي وحاضر المدينتين من خلال تسجيل مشاهد التخريب المختلفة التي حلّت بهما ، وكلا الشاعرين كان صادقاً في رثائه.
٣. كلتا القصيدتين انتهت بموعظة وجّهها ابن الرومي لإناس البصرة في حين قصد بها الخريمي الخليفة المأمون.

٤. لغة القصيدتين تتراوح بين القوة والسهولة ، مع غلبة اللون الحضري ، الذي وسم لغة الشاعرين بالليونة٠
٥. كلّ قصيدة تعبّرعن زمنين ومكانين مرتبطين ببعضهما هما (الماضي ـ الحاضر)٠

أوجه الإختلاف :

١. يمكننا القول أنّ قصيدة الخريمي اتسمت بالتقريرية والمباشرة ، فتمركزت دلالتها في بنيتها السطحية ، لما تخلّلها من النصح والإرشاد والموعظة ، وهذا جعلها تفتقر للمسات الفنية ، إلاّ أبيات أربعة ورد فيها التشبيه (٤٤ ، ٤٥ ، ٦٨ ، ٧٨) ، على عكس ما تميزت به قصيدة ابن الرومي من الفنون البلاغية كالتشبيه الذي ورد في الابيات (٨ ، ١٤ ، ٢٧ ، ٣٩، ٤٢ ، ٥١ ، ٧٨ ، ٨١) والكناية التي وردت في الابيات (٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٥٩ ، ٦٥)٠
٢. مال ابن الرومي كثيراً إلى التفصيل والتدقيق في أحوال الناس ، من ضحايا وسبايا ، وخاصة في الأبيات (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦) ، في حين مال الخريمي الى التفصيل في رصد مشاهد التخريب التي حلّت بنواحي بغداد كالـ (زندورد) و(الياسرية) و(الرحى) و(الخيزرانة العليا) و(قصر عبدويه) و(معابرها)٠
٣. نظمت قصيدة الخريمي على وزن المنسرح ، في حين جاءت قصيدة ابن الرومي على وزن الخفيف.
٤. الصورة الحضارية للمدينة في قصيدة الخريمي أوسع وأكبر ، من خلال ما رسمه لها من علاقات حضارية وثقافية مع بلدان العالم كـ (الهند والسند والصقالبة) الذي ورد في البيت (٣٦) ، في حين اقتصر ابن الرومي على معالم إسلامية وقضايا تجارية ، فضلاً عن أنّ صورالدمار عند ابن الرومي شغلت مساحة واسعة من بنية القصيدة ، ممّا جعل القصيدة تحمل صورة قاتمة مظلمة ، ولعل ذلك له علاقة بطبيعة ابن الرومي٠
٥. تضمّنت قصيدة الخريمي فضلاً عن غرض الرثاء ، غرضاً آخر ، هو مدح الخليفة المأمون وخاصة في الأبيات (١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦)، وتضمّنت نصحاً له إمتداداً من البيت (١١٧ إلى البيت ١٢٩) ، في حين اقتصرت ميمية ابن الرومي على غرض واحد هو رثاء المدينة٠
٦. اختتم الخريمي قصيدته مسوّغاً سبب نظمه لهذه القصيدة ، والذي ورد في الأبيات(١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥) ، في حين لا نجد تسويغاً في قصيدة ابن الرومي ٠

الهوامش :

١. ينظر: الموسوعة الصغيرة (٢٦٦) ، أبو يعقوب الخريمي ، حياته وشعره ، د٠ علي جواد الطاهر ، ص ١٢، ٢٣ ٠
٢. (م٠ن) : ص ٣٠ ٠
٣. (م٠ن) : ص ٤٠ـ٤١ ٠
٤. ديوان الخريمي ، جمعه وحققه ، علي جواد الطاهر ، ومحمد جبار المعيبد ، ص ٢٧ ــ٣٧ ،وبالنظر لأهمية القصيدة تاريخياً ، نقلها الطبري ت (٣١٠هـ) في تاريخه كاملة ، ج٦ ، ص ٢١ ـ ٢٥ ٠
٥. بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ص ٦٠ .
٦. إذا علمنا أنّ توارد هذه النواة في الشعر العربي عموماً ، يتّصف بالقلة والندرة . ينظر : موسيقى الشعر ، ابراهيم أنيس ، ص ٩٦ .
٧. ينظر : تحولات الشجرة ، ص٢٢١ ، وينظر كذلك : موسيقى الشعر العربي ، عيسى علي العاكوب ، ص٢٩ ، وفن التقطيع الشعري والقافية ، صفاء خلوصي ، ص ٤١ .
٨. ينظر: ديوان إبن الرومي ، شرح أحمد حسن بسج ، ج١ ، ص ٧ ، ٩ .
٩. ينظر : (م.ن) ، ص ٧ ، ٨ .
١٠. (م.ن) ،ج١ ، ص ١١ ـ١٢ .
١١. (م.ن) ، ج٣ ، ص ٣٣٨ ـــ ٣٤٢ .
١٢. قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .
١٣. الرحمن : ٢٤ .

١٤. تطور الشعر العربي الحديث في العراق (اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج) ، علي عباس علوان ، ص ٢٣٦ ـ٢٣٧ .

١٥. شعر السياب (دراسة إيقاعية) ، محمد جواد حبيب ، ص١٢٢ .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- أبو يعقوب الخريمي ، حياته وشعره ، علي جواد الطاهر ، الموسوعة الصغيرة ، (٢٦٦)
- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ،ترجمة محمد الولي ، ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر ، ١٩٨٦ .
- تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ،دار الكتاب العربي ، بغداد ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م .
- تحولات الشجرة (دراسة في موسيقى الشعر الجديد وتحولاتها) ، د. محسن أطيمش ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٦ م .
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق (إتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج) ، علي عباس علوان ، وزارة الثقافة والاعلام (الجمهورية العراقية) ، سلسلة الكتب الحديثة ، ١٩٧٥ م .
- ديوان إبن الرومي ، شرح أحمد حسن بسج ، ثلاثة أجزاء ،دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ،منشورات محمد علي بيضون ، ط٢ ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .
- ديوان الخريمي ، أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهي المتوفى (٢١٤ هـ) ، جمعه وحققه : علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد ، دار الكتاب الجديد ،بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٧١ .
- شعر السياب (دراسة إيقاعية) ، محمد جواد حبيب البدران ، إطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
- فن التقطيع الشعري والقافية ، د. صفاء خلوصي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٣ ، ١٩٨٧ م .
- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ،دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ،١٩٧٨ .
- موسيقى الشعر ، ابراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٥ ، ١٩٧٨ م .
- موسيقى الشعر العربي ، د. عيسى علي العاكوب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، دمشق ـ سورية ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

Related Articles

http://thiqaruni.org/arabic/65.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/66.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/125.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/126.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/127.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/128.pdf